الخطاب الروائي النسوي في الجزائر نماذج مختارة

Feminist narrative discourse in Algeria, selected models

د.دلال حيُور
جامعة محمد الصديق بن يحي، جيجل/ الجزائر
البريد الإلكتروني:dalalhiour1@gmail.com

تاريخ الاستلام:2022./01/08 تاريخ القبول:2022/01/31

الملخّص:

ظل الخطاب الروائي الجزائري ولفترة طويلة يحتفي باستفحال الخطاب الذكوري، والذي كان سببا واضحا في تهميش المرأة التي لم تشكل سوى مفردة من مفرداته، فلم يكن منها إلا البحث عن الكتابة الروائية متنفسا، ووسيلة لتحقيق وجودها في المجتمع وفي الأدب على حدّ سواء.

فقد حاولت الروائيات الجزائريات كسر كل القيود التي وضعها الرجل في الكتابة، للخروج بخطاب روائي يعالج قضايا المرأة من خلال نماذج شخصياته في محاولة منها لإثبات قدرة المرأة على التفوق على الرجل بالانتقال من المطالبة بالمساواة إلى تأصيل مفهوم الاختلاف. كما حاولت -الروائيات الجزائريات- من جهة أخرى خرق المحظورات المفروضة في طرح قضايا كان من الصعب الخوض فيها: كالحب، والطلاق، وظاهرة الاغتصاب مثلا، كما سعت من جهة ثالثة إلى إثبات أنّ الواقع هو سبب مباشر في تردي وضع المرأة، وانحسار وجودها في مجتمع لا يزال يكرس سلطة الرجل لها، ويستخف بما تنادي به من حرية ومساواة.

ستحاول هذه المداخلة تناول كل هذه القضايا بالتطبيق على نماذج من الرواية النسوية في الجزائر من مثل : "مزاج مراهقة"و"تاء الخجل" و"اكتشاف الشهوة" لفضيلة الفاروق، و"أحزان امرأة من برج الميزان" لياسمينة صالح ، وغيرها مما يتناسب مع مداخلتنا.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الروائي، النسوية، قضايا المرأة.

ABSTRACT:

For a long time, the Algerian novelist discourse celebrated the intensification of masculine discourse, which was a clear reason for the marginalization of women, who constituted only one of its vocabulary, as it was only the search for novel writing as an outlet, and a means to achieve their presence in society and in literature alike.

Algerian female novelists have tried to break all the restrictions placed by men in writing, to come up with a narrative discourse that addresses women's issues through the models of his characters in an attempt to prove women's ability to excel over men by moving from demanding equality to rooting the concept of difference. On the other hand, the Algerian novelists tried to violate the prohibitions imposed in raising issues that were difficult to discuss: such as love, divorce, and the phenomenon of rape, for example. On the other hand, they sought to prove that

reality is a direct cause of the deterioration of the status of women, and the decline of their presence in society. It still dedicates men's authority to it, and underestimates its freedom and equality.

This intervention will attempt to address all of these issues by applying to examples of the feminist novel in Algeria, such as: "The Mood of a Teenager", "Taa Al-Khajal" and "The Discovery of Lust" by Fadila Al-Farouq, and "The Sorrows of a Woman from the Libra" by Yasmina Saleh, and others that fit with Our intervention.

Keywords: narrative; discourse feminism; women's issues.

المقدّمة:

عاشت المرأة ولسنين طوال في مجتمع يعلي من منزلة الرجل، في كل مجالات الحياة بما فيها الأدب، على حساب وجودها، سعادتها، وتحقيق ذاتها، وبعد كلّ ما قدمته -المرأة- من تنازلات، لم تستطع أن تبق راضخة، مستسلمة لظلمه، غافلة لعدم مبالاته لا بمشاعرها، ولا بأحاسيسها، وناكرا لوجودها ودورها الأساسي في الحياة، مهما كانت منزلتها ومكانتها، فارتأت للتعبير عن هذه الذات بالإبداع، والكتابة في مختلف الأنواع الأدبية، فجاءت كتاباتها للرواية على وجه التحديد، كونها ذات" نفس أطول يثير بداخلها تلك الحالة اللذيذة من التعب ومن اللهات ومن الكلام...."(1)، فحاولت أن تكتبها لا "من ذات مبدعة مخلوقة من عدم وإنما من حقل اجتماعي وذاتي لم يفض إلى تلوين أدبها الروائي بلون خاص وحسب، بل أفضى إلى جعل كتابة المرأة فعل مقاومة مزدوجة حيال عالم غير عادل من جهة، يقاومه الرجل أيضا، وحيال مجتمع بطركي/ ذكوري من جهة أخرى، مسؤول عن ألمها الأنطولوجي، تبدع هي في التعبير عنه"(2)، هذا المجتمع الذي حاول طمس شخصيتها ولم يرض بمنحها أبسط حقوقها.

حاولت المرأة في كتاباتها جاهدة اختيار الموضوعات التي تتناسب مع تطلعاتها في تعرية الواقع الاجتماعي المرير الذي تعيشه -المرأة- في مجتمعاتها، خاصة و أنها لم تسقط من تفكيرها"المنظور الذكوري في تعامله مع إبداع المرأة الروائي الذي يعده فضائحيا بسبب كتابة المرأة، أوجاع أنوثة وهموم وضع يشكو ألوانا من القهر والاستلاب وأشكالاً من التهميش"(3)، فلم تزدها هذه النظرة إلاّ رغبة أكبر في الاستمرار في هذا الفضح الذي اعتبرته الكثير من الروائيات رسالة، ومسؤولية، أوكلت لهنّ عن طريقها مهمة الدفاع بها عن قضايا، ومشاكل المرأة في محاولة منها للخروج عن" مجموعة من التقاليد والأعراف والقيم الاجتماعية التي كبلتها وجعلتها عاجزة عن القيام بكل ما من شأنه أن يجعلها منتجة وفعالة في المجتمع، وهذا ما أدى إلى ظهور الأدب النسوي"(4) بأنواعه المختلفة، خاصة وأنه يعالج قضايا المرأة بعيدا عن جنس مؤلفه سواء كانت امرأة أو رجل، فحسب رأي بعض الكاتبات لا يوجد مبرّر واضح لمثل هذه التصنيفات، رغم أنّ المرأة" قد تكتب عن نفسها بشكل أفضل ممّا قد يكتب الرجل عنها لأنها أعرف بنفسها،.....فإما أن تكتبي أدبا جميلا فيصحّ أن يكون أدبا أو تنتفي أدبية العمل فلا يرتقي إلى المستوى الأدبي"(5)، هكذا تتصالح المرأة مع نفسها فيما تقدمه من إبداع، والذي حاولت من خلاله إظهار قدراتها الفنية، التي لا تقلّ عما يتميّز به إبداع الرجل.

جسدت الرواية النسوية، عوالم الأنوثة بتشعباتها الحميمية والعامة، وتحدثت عن كل خصوصياتها، وحاولت كسر كل القيود التي وضعها الرجل، بقدرتها على الخروج بخطاب روائي متميز من حيث أنه يعالج قضايا المرأة من خلال نماذج شخصياته النسائية اللاتي حاولن إثبات قدرة المرأة على التفوق على الرجل بالانتقال من المطالبة بالمساواة إلى تأصيل مفهوم الاختلاف. ومن بين القضايا التي اهتمت بها الرواية النسوية في الجزائر التالي:

1-قضية المرأة المتعلمة:

تلتقي الكثير من الروايات النسوية الجزائرية في معالجة مسألة إثبات المرأة ذاتها عن طريق النجاح في دراستها، حيث قدمت لنا بعض هذه الأعمال الروائية صورا مختلفة حدّ التناقض لحالات اجتماعية كأنها تعيش في قارتين، ومجتمعين مختلفين تماما؛ تحدثنا الروائية(فضيلة الفاروق)على لسان البطلة/ الراوية التي تعيش في مجتمع لا يستطيع أن يستوعب نجاح المرأة، ولا يتصور خروجها عن أسوار السجن الذي يشكل الوضع الطبيعي لتواجدها فيه، فيمتد قرار السماح لها بأخذ تأشيرة الخروج منه إلى مكان آخر-وبالتحديد للجامعة-، عقد مؤتمرات والدخول في مشاورات تمتد عناصر تشكلها من العائلة الصغيرة إلى الأعمام، فتعرب المرأة-البطلة- عن حالة اليأس والحزن الذي تعيشه في ظل هذا الرفض التام لإكمال دراستها، والالتحاق بمقاعد الدراسة في الجامعة" ما أتعس أن يكون الفرد امرأة عندنا، فكل طموحاته تتوقف عند عتبة تاء التأنيث"(6)، في مقابل هذا يضع الوالد للبطلة "لويزة" مجموعة من الشروط، والتي يلزمها باحترامها، وتنفيذها مقابل السماح لها بتحقيق طموح ما بعد البكالوريا.

وفي في ظل هذا النوع من التفكير تتربى الفتاة على الانغلاق، على إنكار كل شيء أو أي شيء يتعلق برغباتها و أحلامها، وهذا ما يجعلها تخاف حتى على نفسها من طموحاتها وآمالها، وتنتقد تلك الرغبات المكبوتة إذ تراها شبه محرمة، وتلوم نفسها إذا خرجت عن المعتاد والمألوف في التفكير، أوحتى في الأحلام البسيطة، لتقضي عمرها حبيسة لأفكارها التي حددها المجتمع والعائلة لها دون مبرر أو سبب مقنع، من هنا تكون طموحات المرأة قد انعدمت كليا، وسلبت منها حريتها التي أصبحت متأكدة بأنها مجرد شعارات تنادي بها الكثيرات من بنات جنسها، ولكنها لا يمكن أن تتجسّد بسهولة، وفعليا على أرض الواقع.

تتأكد المرأة بأنها تعيش في"مجتمع للرجال، وأنّ المرأة مكبلة الحركة أو أنّها فريسة سهلة لأطماع الآخرين، فيما لو قررت أن تتحرك بحرية خارج عتبة بيتها، من هنا يبدو المجتمع، الذي يهيمن عليه وعي الذكورة، مسكونا بآليات ذكورية تقمع النساء وتصادر وجودهن الفاعل؛ لأنهنّ فضائح، أوعورات، أو عيب، أو ما إلى ذلك"(7)، يتجلى عرض هذا المنظور بشكل واضح أيضا من خلال بطلة رواية"أحزان امرأة من برج الميزان" للروائية الجزائرية(ياسمينة صالح) التي تحاول أن تثبت وجودها في ظل هذا المجتمع الذكوري الذي يرفض أن تقاسمه المرأة لعب دور الريادة في مجتمعه البطريكي. كما حاولت بطلة الرواية أن تؤكد على وجود أشخاص واعون بـ"تصرفات النساء الفاعلات في الحياة المعيشة، بصفة المرأة الفاعلة شخصية اجتماعية ذات كينونة مستقلة، ومنتجة أسريا، واجتماعيا، واقتصاديا، وثقافيا، إلخ !!وأنها تحتاج إلى أن تكون لها حريتها الشخصية، ووضعها المساوي لوضع الرجل في قيم المعيشة والأخلاق والإنسانية"(8)، خاصة عندما

يكون هذا الشخص هو الأب الذي يساند ابنته، ويشجعها على المضي قدما لتحقيق ذاتها وطموحاتها، خاصة في ظلّ مجتمع ريفي لا يؤمن بحقها في إكمال تعليمها في الكتاتيب، أو المدارس القرآنية، فما بالك بالجامعة أين تنتقل إلى العيش في الإقامة الجامعية في المدينة، تقول البطلة" ولعل رجال القرية عاتبوه في قرارة أنفسهم، لأنه ترك ابنته تسافر للعيش في مدينة كبيرة لوحدها، كما عاتبه إخوتي الذكور الذين لم يستوعبوا ذلك تماما.."(9)، فالراوية هنا تقدّم صورا متناقضة لموقف المجتمع من فكرة تعليم المرأة خارج أسوار الريف.

لقد حاولت المرأة المتعلمة إذا أن تفرض وجودها في هذا المجتمع الذي لا يؤمن بكل حقوقها، فحاولت بنجاحها أن تثبت تميّزها، تقول بطلة(ياسمينة صالح)" كنت أريد أن أثبت لنفسي أنني أفضل منهم جميعا، وأن النجاح ليس ضربة حظ، بل هو اجتهاد لا يمكن فصله عن العلم الذي خرج من بيت الشيخ عبد الحميد الجزائري... علم أراد أن يبني الإنسان، ويصنع منه كيانا يستحق الحياة"(10)، لقد حاولت البطلة أن تدافع عن طموحاتها-التي يقف المجتمع وأعرافه حاجزين أمام تحقيقها-بالرغم من صعوبة الأمر، فاستطاعت بقوتها التي استمدتها من بيت والدها عبد الحميد الجزائري أن تقف في وجه كل القيود، وفي وجه المجتمع وعاداته وتقاليده، تقول البطلة" كنت طالبة تعيش النجاح كي تتحدى به عاهات قريتها وطقوس رجالها المعقدين والخائفين من التفوق، وكان أبي رغم فقره ومن تحفظه الشديد يقدس العلم ...لم تكن البكالوريا شهادة تفوّق فحسب، بل كانت جسرا معبدا ممتدا بين قناعات والدي ورغبتي في الرحيل من قرية نائية وبائسة...وفي نفس الوقت كنت تلك المهووسة بالتفوق، الرافضة لفكرة البقاء في البيت لإثبات أنوثتها الوحيدة لزوج لا يهمه فيها سوى ذلك الجهاز الذي يفقس الأطفال.."(11)، إنّ امتلاك المرأة لمستوى ثقافي جامعي قد أهلها لكي تكون لها آراؤها المتحررة الرافضة للأعراف، والتقاليد، والعادات ومن ثمّ"يبدو عنصر الثقافة واضحا... والتي مكنت المرأة من إسماع صوتها والدفاع عن طموحاتها ونزواتها أحيانا وجعلتها تفتح باب الجدل حول وضعية الرجل و المرأة"(12). لقد أعلنت المرأة من خلال الكثير من أفعالها، والعديد من إنجازاتها تمردها على السلطة الذكورية التي تجعل الأنثى كائنا لا يحق له ما يحق للرجل خاصة في التعليم. واستطاعت من خلال العديد من المواقف أن تقضي على الفوارق التي تجعل من الذكر أعلى مرتبة من المرأة، خاصة بما وصلت إليه من مناصب، وما حققته من مكاسب، ولتؤكد من خلال ذلك بأنّها فوارق وهمية ابتدعتها السلطة الذكورية.

2- قضية المرأة المقموعة:

تختار الروائية (فضيلة الفاروق)الاستمرار في الكتابة عن أشكال مختلفة للاستبداد بالمرأة، حتى أنّ الكثير من النقاد، والباحثين قد اعتبروا روايتها "تاء الخجل"امتدادا لروايتها السابقة" مزاج مراهقة"، ولكنها جاءت أكثر قساوة عندما تحدّثت عن موضوع اغتصاب النساء في فترة العشرية الدموية، والتي عرفتها الجزائر في فترة التسعينات، خاصة وأنّ الراوية/ البطلة/الصحفية تتحدث عن أرقام إحصائية مخيفة لعددهن، فهي تقول:"

سنة العار....

سنة 1994 التي شهدت اغتيال 151 امرأة، واختطاف 12 امرأة من الوسط الريفي المعدم.

ثم ابتداء من عام 1995.....

550 حالة اغتصاب(فتيات ونساء) تتراوح أعمارهن بين 13 و40 سنة سجلت تلك السنة .
تضاربت الأرقام بطريقة مثيرة للانتباه في حضور قانون الصمت.

1013 امرأة ضحية الاغتصاب الإرهابي بين سنتي 1994و1997، إضافة إلى ألفي امرأة منذ سنة 1997. والبعض يقول إن العدد يفوق الخمسة آلاف حالة. ولا أحد يملك الأرقام الصحيحة، إن السلطات مثل الضحايا تخضع لقانون الصمت نفسه"(13)، لقد حاولت الراوية بحكم عملها الصحفي أن تنقل لنا حكاية العديد من الشخصيات التي التقت بها في المستشفى الجامعي، واللواتي وضعن في جناح خاص بعدما تم تحريرهنّ من أيدي الإرهابيين، حيث تعرفت على إحداهن، والتي حدثتها عن بشاعة ما ارتكب في حقهن، حيث قالت:

"- هل تعرفين ماذا يفعلون بنا؟ إنهم يأتون كل مساء ويرغموننا على ممارسة العيب، وحين نلد يقتلون المواليد، نحن نصرخ ونبكي ونتألم وهم يمارسون معنا العيب، نستنجد، نتوسّلهم، نقبّل أرجلهم ألاّ يفعلوا ذلك ولكنهم لا يبالون.

علَّتْ كُمّيْ جلبابها قربت معصميها المشوهين مني:

-انظري.....ربطوني بسلك وفعلوا بي ما فعلوا، لا أحد منهم في قلبه رحمة، وحتى الله تخلى عني مع أنني توسلته. أين أنت يا رب، أين أنت يا رب؟"(14)، هكذا تتعرف"خالدة" الراوية/ البطلة/ الصحفية عن معاناة الفتيات اللواتي التقت بهن، واللاتي كنّ على حافة الموت، فكلهن كانت حالتها أسوء من الأخرى، وتأكدت الراوية بأنّ"هناك قضايا لا تحلها صرخات الجرائد، هناك قضايا يحلها العدل، يحلها القانون، والضمائر الحية"(15). هكذا تصغر الدنيا في عين"خالدة" بعد معاينتها الشخصية للوضعية، والحالة الصعبة لشخصية"يمينة" ورفيقاتها اللواتي لم يكفيهن كل ما مورس ضدهن من قمع وعنف، بل زادت معاناتهن بعد اتهام السلطة لهن بالتواطئ مع الإرهابيين،إضافة إلى تخلي أهاليهن عنهن.

هكذا تعرّي الروائية فضيلة الفاروق جانبا من الواقع المرير الذي عانته المرأة في مجتمع ذكوري لم تعرف الرحمة لقلبه سبيلا، ظلمها، ومارس كل أساليب القمع عليها، وأكثر من ذلك جعلها ميتة على وجه الأرض دون أيّ سبب يذكر.

3- قضية المرأة والزواج:

يعتبر الزواج الرابط الشرعي المقدس الذي يربط بين الرجل والمرأة، والذي يجعلهما يتقاسمان الحياة بحلوها ومرها، ويتعاهدان على تخطي الصعاب، وتجاوز كلّ المحن والابتلاءات، والعيش بما قسمه الله لهما من السعادة والخير، والعطاء، وهذا هو الطبيعي في هذه الحياة التشاركية التي تقتضي ذلك.

ولكن الروائية(فضيلة الفاروق) تسلط الضوء على نوع خاص من أنواع الزواج الذي تجبر عليه المرأة، وهو ما يسمى بزواج الغصب، والذي لا يجد فيه الطرفين قواسم مشتركة تجمعهما لأسباب خارجة عن إرادتها، بسبب تدخل أطراف أخرى لتقرّر مصيرهما. حيث يعتبره الرجل ورطة يصعب التملص منها، خاصة وأنه يتوقع مسبقا صدّ الطرف الآخر له، وعدم تقبله له، خاصة وأنه يمثل بالنسبة لكثير من النساء نهاية

لأحلام وردية كانت تتطلع لتحقيقها مع آخر غير الشخص الذي أرغمت على الارتباط به، تقول الراوية في رواية "اكتشاف الشهوة":" ما أقسى أن نسلّم أجسادنا باسم وثيقة لمن يقيم ورشة عليها أو بحثا عن المتعة، كأنّنا ورقة يناصيب من النادر أن تصيب"(16)، إذا تتحول هذه الوثيقة الرسمية في عرف المرأة المغصوبة على الزواج كورقة اليانصيب التي يمكن أن تصيب أو تخيب، فهي مقامرة وليست مغامرة، وللأسف يتوقع الطرفين فشل التجربة قبل أن يتأملا استمرارها.

تقبل بطلة رواية"اكتشاف الشهوة" الزواج من رجل لا تحبه دون أن تحترم الأسرة مشاعرها، ولا لفارق السن بينهما، فقد تحولت حياتها لتعاسة، في وطن تغلب عليه العادات والتقاليد، مجتمع متعسف يعتبر المرأة مجرد وسيلة متاحة للرجل، فالمرأة لا تسأل حتى عن رغبتها في الزواج أو لا، فتجد نفسها أمام ضغوطات حياة لم تتصور أن تعيشها يوما. لقد عانت شخصية "باني"من الزواج القسري الذي حول علاقتها بزوجها إلى جحيم حقيقي، حيث تكتشف البطلة أن العلاقة الجنسية بين الزوجين في هكذا حال تتحول إلى اغتصاب، فتلجأ إلى البحث عن حب خارج أسوار زنزانتها- بيت الزوجية-، هاربة من الكآبة والحزن والهم، لتبحث بطريقة غير شرعية عن الحب والحنان الذي تتمناه كل امرأة، فترتكب المحظور الذي لا يقبله لا الدين، ولا الأخلاق، ولا عاداتنا وتقاليدنا.

4- قضية المرأة والطلاق:

ترى المرأة المطلقة في حالتها الجديدة بعد الطلاق شبحا يطاردها أينما حلّت، ومهما كانت مكانتها الاجتماعية، التي ستتأثر من دون أي شكّ بهذا الطارئ الجديد الذي قلب حياتها رأسا على عقب، خاصة وأن الكثير من الأمور ستتغيّر في حياتها، وفي مقدمتها نظرة المجتمع لها، فوضعيتها الجديدة ستجعل كلّ العيون ترقبها، وتنتظر أيّ سلوك يدرج في خانة المشبوه.

تجلب المرأة المطلقة العار لأهلها-هذا هو التفكير الغالب - في المجتمعات الشرقية عموما، والتي- المجتمعات الشرقية- لا تقبل أيّ مبررات وأسباب له إلاّ موت أحد الطرفين، لأنّها تؤمن في حقيقة الأمر برباط الزواج الذي يقوم أساسا على تحمل الطرفين لبعضهما البعض، مهما صعبت الحياة بينهما حتى يسير قارب الحياة بأمان.

تعرض الروائية(فضيلة الفاروق) هذا الموضوع من زاوية أخرى، حيث تغيرت نظرت المجتمع للمرأة المطلقة حدّ اعتبارها عاهرة، لذلك تتلقى مجموعة من الملاحظات، والتوضيحات حول وضعها الجديد، والذي يشعرها بأنّها ارتكبت محظورا، أو أتت على فعل مشين تخجل منه، وهو ما يجعلها تفضل العزلة والخلوة، والابتعاد عن كلّ الأشخاص، تقول"باني" بطلة رواية"اكتشاف الشهوة":"شيئا فشيئا وجدتني أتكاسل للنّهوض من فراشي صباحا وأهرب لمزيد من العزلة وأتناول مزيدا من الأطعمة وأموت كثيرا من الأوقات أموت"(17). تهرّب المرأة حتى من النظرات التي تطرح ألف سؤال دون أن تتمكن من الإجابة عنها، فلقد قيل لـ "باني" بعد عودتها من فرنسا إلى مسقط رأسها بـ"آريس":" كيف ستعيشين مطلّقة وسط الرعاع غدا سترين الرّجال كيف يتحرّشون بك، وكيف ستحاك حولك الروايات وكيف ستصبحين عاهرة في نظر المجتمع دون أن يرحمك

أحد"(18)، هكذا تصدم المرأة المطلقة بهذا الواقع الجديد الذي يلومها على نتيجة زواج فاشل، لم يتحقق فيه الوفاق بين الطرفين لأسباب يجهلها كلّ من يسيء لها بكلمة، أو نظرة.

5- قضية المرأة والحب:

لا نكاد نجد رواية جزائرية خالية من الحديث عن موضوع الحب، فقد تناولته بأسلوبين مختلفين؛ تلميحي بعيدا عن الجرأة، أو تصريحي جاء بشكل مباشر متجاوزا كل القيود، خاصة وأننا نعلم بأنه طابو من الطابوهات المحرم الحديث عنها، في ظل مجتمع محافظ لا يؤمن بوجود مثل هذه المشاعر بين الرجل والمرأة، بعيدا عن العلاقة الشرعية-الزواج- التي تجمع بينهما، فهو في عرف المجتمع الجزائري فضيحة أخلاقية.

تعتبر(أحلام مستغانمي)الحب قضية نسائية محضة" لا تعني الرجل سوى بدرجات متفاوتة من الأهمية"(19)، فهي تؤمن بأنه من أولويات حياتها- المرأة-، ولا يمكنها الاستغناء عنه، وتجعله في مقدمة ما تحتاجه المرأة، على عكس الرجل الذي لا يمكن للحب أن يكون الأول في حياته، لعدة اعتبارات منها؛ انشغالاته والتزاماته الكثيرة.

لا تشعر المرأة بأنوثتها وأهميتها إلا عن طريق الحب. ولأنّ علاقة الحب تنتهي بنهاية مأساوية، أصحابها خاسرون ينتهي بهم المطاف إلى طريق مسدود لأسباب كثيرة مثل: الموت كما في رواية "بحر الصمت" لـ (ياسمينة صالح)التي فقدت "الرشيد" الشاب الذي عشقته بسبب استشهاده في الثورة الجزائرية.

ترى أحلام مستغانمي أنّ الحب هو أسمى الموجودات، وأولى ضرورات الحياة، في حين يعتبره مجتمعنا الجزائري عمل لا أخلاقي ويربطه بمصطلح العهر، فكل امرأة تعشق رجل لم تتزوجه تعتبر عاهرة -ويقود فضح أمرها إلى ارتكاب جرائم في الكثير من الحالات، فلطالما انتشرت قصص عن أب قتل ابنته لوقوعها في حب أحد الشباب، أو أخ تبرأ من أخته لأنها عشقت أحدهم، وهناك من أجبرت على المكوث في البيت ومنعت من متابعة دراستها-، ويمكن أن نستشف هذا الموقف من خلال شخصية "ياسين" ابن عم"خالدة" بطلة رواية "تاء الخجل"، تقول الراوية:

"أمسكني من الخلف، دفعته عني، وصرختُ في وجهه:

- إياك أن تلمسني ثانية...

عوى كلب بالجوار.

ابتسم ياسين بخبث:

- أيتها العاهرة، نصر الدين أحق بك مني؟

صفعته، وهربت"(20).

لا يمكن أن ننكر صراحة وجود الكثير من البنات اللاتي تم الغدر بهن في مثل هذه العلاقات غير الشرعية، التي تبدأ بالحب وتنتهي بالعهر، ومن بين ما ننمذج له شخصية "نادية" في رواية أحزان امرأة من برج الميزان" حيث تظهر كشخصية مستهترة تؤمن بـ "ثقافة الهباء... ثقافة المستشفيات والخروج المتسلل ليلا

نحو مناطق تتباهى بالسلّم على حساب كرامة الناس وكبريائهم، وأمنهم..."(21)، هذه الشخصية التي كانت تتطلع لمستقبل أفضل بعيدا عن ماضي والدتها- كانت تمارس العهر في بيتها-، واستطاعت أن تحقق ذاتها بعيدا عن صورة أمها بالتفوق في دراستها والنجاح في شهادة البكالوريا، هذا التفوق الذي رغبت فيه لا لشيء إلا للاختلاف، حيث تقول "نادية":" ففي قرارة نفسي كنت أريد أن أكون مختلفة، كي لا أشبه والدتي في شيء..."(22)، ولكن الظروف كانت أقوى منها فجعلتها نسخة طبق الأصل عن أمها، وما وصولها إلى هذه الوضعية الاجتماعية الوضيعة، إلاّ نتيجة حتمية لحالة التفكك الأسري الذي عاشت في ظله، وتخلي الأب عن مسؤوليته اتجاه أسرته ككل.

كما تمثله من جهة ثانية شخصية "أم نادية" التي" قررت أن تهرب كلّ يوم مع رجل..وتخون الرجال جميعا..لأجل واحد أحبها باسم الرغبة وهجرها باسم المصلحة..مصلحته في الخروج من دائرة المسئولية، وقد صار أبا لطفلين لا يملك ثمن الخبزة التي يطعمهم بها..."(23)، هكذا تظهر لنا شخصية "الأم" التي تخلت وتجاهلت كل مبادئها وقيمها الدينية، والأخلاقية، وتخطت كل الأعراف والتقاليد، شخصية لم تفكر إلاّ في نزوة عابرة، ولم تحسب حسابا للأذى الذي سيلحق بأبنائها الذين سينبذون من المجتمع، خاصة وأنّنا نعرف جيدا طبيعة تفكير المجتمع الجزائري الذي يلقي باللوم دائما على من لا ذنب له.

اعتبر الحب عند الكثيرين عيبا، ومن الأمور التي لا يجدر الاعتراف بها حتى في حدود العلاقات الشرعية نفسها"من العيب أن تسأل امرأة متزوجة هل تحب زوجها"(24)، فتبقى المرأة في صراع مع الذات التي أخفت حبها سرا، لتعيش خائفة من حدوث فضيحة، أو جلب العار لأهلها "ما أخطر الاعتراف بالحب إذن إنه كالزنا كإحدى الكبائر كالقتل"(25)، وهذا ما كان يدفع بالآباء لتزويج بناتهم، وهن في عمر صغيرة خوفا عليهن من الخطأ والفضائح، وهذا ما حدث مع خالدة بطلة رواية"تاء الخجل" التي حاولت السلطة الذكورية تقديم كل الحلول لمشكلتها، بهدف الخروج بأقل الأضرار، خاصة بعد فضح العلاقة التي كانت تجمعها بـ"نصر الدين"؛ حيث حاول كلّ فرد من العائلة اقتراح حلّ للمشكلة دون الرجوع للبطلة في تقرير حياتها وتحديد خياراتها؛ حيث جاءت حلول أفراد العائلة متباينة؛ بين من يريد المصلحة الشخصية بزواجه منها، وإبعادها عن حبيبها، وتمثلت في شخصية ابن عمها ياسين والذي أعرب صراحة على الرغبة في الظفر بها تقول الراوية:

" التفتّ، كان ياسين ابن عمي.

- هل تتجسس عليّ؟

أجاب وعيناه تشتعلان:

- نعم.

فهمت أنه يريد أن يقول شيئا:

- ماذا تريد؟

صدمني:

- ابتعدت عنه.

لاحقي"(26)، وبين من يريد الستر والابتعاد عن الفضيحة، من خلال حلين مختلفين؛ فالأول يتمثل في اقتراح عمها بوبكر الذي كان يحرض والدها على إبقائها في البيت، وحرمانها من مواصلة دراستها، ومن بين ما دار بينهما من حوار قوله:

"- كل بنات الجامعة يعدن حبالى، فهل ستنتظر حتى تأتيك بالعار؟

قال والدي غاضبا وردّ عليه:

- إلى هنا وتنتهي أخوتنا.

- يارجل، لقد رأوها مع نصر الدين ابن مسعودة أكثر من مرّة.

وكأن والدي أراد الدفاع عني:

– ولكن أبناء مسعودة في العاصمة..

فيقاطعه عمي الماكر:

– إنّه يأتي من العاصمة خصيصا لرؤيتها"(27).

أما شخصية سيدي إبراهيم فيصرّ على تزويجها "لمحمود أو أحمد، ولم أكن أعلم أن هذا الاقتراح سيثير صبايا بني أمقران، ويحولني إلى علكة في الأفواه، لكني لم أعبأ به"(28)، في حين يتفق جميع أفراد العائلة على زواجها من أحمد، هذا الأخير الذي يعرب لها صراحة عن رفضه لمثل هذه القرارات، التي لا تحترم الخيارات الشخصية للطرفين، تقول الراوية"....أما أحمد فقد فاجأني ذات يوم في الجامعة، كان مختلفا تماما عن أحمد الذي أعرفه في البيت، في عينيه جرأة لم أرها من قبل، قال لي:

– يجب أن نرفض أن يقرروا مصائرنا.

فهمته كان يقصد موضوع الزواج:

.....

– ولماذا ترفضني أنا إذن؟

نظر إليّ لحظة ثم قال:

– لأن نصر الدين صديقي"(29).

هكذا تعيش المرأة مرارة الخذلان من أقرب الأشخاص لها، والذين يبيحون لأنفسهم تخطي كل الحواجز، في محاولة تقرير مصيرها، بدعوى احترام العادات والتقاليد، ولكنها مع ذلك تحاول أن تستمد قوتها من أشخاص يثقون بها، ويقفون دائما في صفها، كما كان يفعل والد البطلة "خالدة"، ووالد بطلة رواية" أحزان امرأة من برج الميزان".

الخاتمة

يلعب وعي المرأة المثقفة دورا مهما في تحقيق كتابات أدبية متميزة لا يكون السبيل إليها إلاّ" القراءة المستمرة للواقع بكلياته وتفاصيله، بأحداثه وتطلعاته، برجاله ومؤسساته، بكوابحه وآفاقه"[30]، فهذا هو السبيل الوحيد لأن تكون لنا كتابة نسوية، تحاول ملامسة مختلف القضايا المهمة للمجتمع لأن" احتكاك المثقف بالواقع، ومناقشته قضاياه وهمومه، لا يعد تراجعا عن الهموم الثقافية الجادة من قبل المثقف. بل

نحن نعتقد أن اهتمام المثقف بشأن مجتمعه والعمل على معالجة مشاكله وهمومه هو الخطوة الضرورية لإبداع المثقف وممارسة دوره المأمول منه"[31]، فقد استطاعت الرواية النسوية الجزائرية إذا من خلال وعي كاتباتها أن تسلط الضوء على قضايا حساسة كان من الصعب التطرق إليها في وقت ليس بالبعيد، وفي مقدمتها الزواج القسري أو زواج الغصب، وظاهرة الاغتصاب التي عرفتها الجزائر في فترة العشرية السوداء، والتي عبرت حقيقة عن فضاعة القمع الذي مورس ضد المرأة. كما لم تسقط الكاتبات من اهتمامها، تناول قضية المرأة المتعلمة، والطموحة التي حاولت الدفاع عن حقها في التعليم، لتثبت وجودها في مجتمع ذكوري بطريكي لا يؤمن بحقها فيه، كما كان لقضية المرأة والحب نصيب من الاهتمام من خلال نماذج من الشخصيات، التي لم تحسن استغلال الحرية التي منحت لها، فوصلت إلى وضعية مؤسفة لم تعرف فيها، إلاّ الخزي والعار.

الإحالات :

(1) صورة المرأة في الرواية النسائية الجزائرية، بن بوزة سعيدة، مقال ضمن مجلة المعنى، العدد الأول، جوان2008، ص246.

(2)الكاتبة وخطاب الذات(حوارات مع روائيات عربيات)، صيداوي رفيف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1،2005، ص15.

(3) سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، بوشوشة بن جمعة، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس،ط1، 2005م، ص72.

(4) اكتشاف الشهوة، فضيلة الفاروق، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص 140.

(5) الكاتبة وخطاب الذات (حوارات مع روائيات عربيات)، صيداوي رفيف، ص77

(6) مزاج مراهقة،فضيلة الفاروق، دار الفارابي، ط2000، ص12.

(7) قراءات في المنظور السردي النسوي، مناصرة حسين،الناشر عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع إربد، الأردن،ط1، 2013، ص17.

(8) المرجع نفسه، ص17.

(9) أحزان امرأة من برج الميزان، صالح ياسمينة، رواية، منشورات جمعية المرأة في اتصال، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، د ط، 2003م، ص21.

(10) المصدر نفسه، ص103.

(11) أحزان امرأة من برج الميزان، صالح ياسمينة، ص20، وص23.

(12) الرواية المغربية والتغيير الاجتماعي، الدغمومي محمد، افريقيا الشرق، الدار البيضاء،ط1، 1991م، ص105.

(13) تاء الخجل، فضيلة الفاروق، دار رياض الريس للكتب، بيروت، لبنان، ط2، 2006، ص36.

(14) المصدر نفسه، ص 45.

(15) المصدر نفسه، ص 55.

(16) اكتشاف الشهوة، فضيلة الفاروق ، ص82.

(17) المصدر نفسه، ص 89.

(18) المصدر نفسه، ص12.

(19) فوضى الحواس، أحلام مستغانمي، دار الآداب، بيروت، ط5، 1998، ص 94.

(20) تاء الخجل، فصيلة الفاروق، ص28.

(21) أحزان امرأة من برج الميزان، صالح ياسمينة ، ص101.

(22) المصدر نفسه، ص68.

(23) المصدر نفسه، ص66.

(24) اكتشاف الشهوة، فضيلة الفاروق، ص99.

(25) المصدر نفسه، ص99.

(26) تاء الخجل، فضيلة الفاروق، ص27.

(27) المصدر نفسه، ص28،29.

(28) تاء الخجل، فضيلة الفاروق، ص 30.

(29) المصدر نفسه، ص31.

(30) الحضور والمثاقفة المثقف العربي وتحديات العولمة،محفوظ محمد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2000، ص47.

(31) المرجع نفسه، ص54.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أحلام مستغانمي: فوضى الحواس، دار الآداب، بيروت، ط5، 1998.

2- بن بوزة سعيدة: صورة المرأة في الرواية النسائية الجزائرية، مقال ضمن مجلة المعنى، العدد الأول، جوان2008.

3- بوشوشة بن جمعة: سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، ط1، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس، 2005م.

4- الدغمومي محمد : الرواية المغربية والتغيير الاجتماعي، ط1، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991م.

5- صيداوي رفيف: الكاتبة وخطاب الذات (حوارات مع روائيات عربيات)، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، 2005.

6- فضيلة الفاروق: اكتشاف الشهوة، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2000.

7- فضيلة الفاروق:مزاج مراهقة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2000.

8- فضيلة الفاروق: تاء الخجل، دار رياض الريس للكتب، بيروت، لبنان، ط2، 2006.

9- محفوظ محمد: الحضور و المثاقفة المثقف العربي وتحديات العولمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2000.

10- مناصرة حسين: قراءات في المنظور السردي النسوي، ط1، الناشر عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع إربد، الأردن، 2013.

11- ياسمينة صالح: أحزان امرأة من برج الميزان، رواية، منشورات جمعية المرأة في اتصال، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، د ط، 2003م.